الأبعاد الإيحائية والرسائل التفاعلية في رثاء الممالك بين أبي البقاء الرندي وأحمد شوقي دراسة تحليلية وصفية

إبراهيم أحمد حربلي

ملخص البحث:

وقف الشاعر الأندلسي أبو البقاء الرندي وقفة ملؤها الحزن والجزع عند بدء تهاوي الملك والحكم في الأندلس، مستجمعا ما تبقى من قوته حيال ما رأته عيناه وما تفاعل في قلبه لتخرج كلماته الصادقة في رثاء الأندلس مستصرخة القلوب والعقول، محذرة من مستقبل مظلم آت. ومهما يكن من شيء، شاء أبو البقاء أم أبى، فقد تحولت الأندلس إلى رمز للمجد الضائع في وجدان الأمة فبقيت حاضرة في الأذهان، ليتلقفها أحمد شوقي بعد قرون متخذا من رمزيتها مادة لرثاء أختها (أدرنة)، عازفا على وتر الأشجان، مخرجا كلماته الأليمة في وصف بارع ومعمق لأحداث (أدرنة)، مستحضرا موسيقى البحتري وصور أبي تمام وشجى أبي البقاء.

المقدمة

انتشر على ألسنة الناس منذ زمن بعيد عباراتان تختصران شيئا مما أود طرحه في هذه الوريقات، فيقول البعض "لكل زمان دولة ورجال" ويقول الآخرون "لو دامت لغيرك ما آلت إليك". تعاقب الحكام وتعاقبت الدول دولة خلف دولة على بسط أحكامها على مساحة جغرافية معينة من هذه الأرض ولمدات زمنية مختلفة، وعلى الرغم من الاختلافات الكبيرة بين حكم دولة وحكم أخرى من حيث بسط السيطرة ووضع القوانين، تشابهت الدول في حيثيات كثيرة وأبرزها السقوط والانهيار والزوال الجغرافي، فإذا فتحنا كتب التاريخ نجد أول ما نجد أن الكاتب يبتدئ بالكلام عن نشأة الدول، ثم يمر بالتوسع العمراني والجغرافي والنهضات العلمية البارزة التي حصلت في ظلال هذا العهد ويصل في الختام إلى الكلام عن انتهاء وسقوط هذه الدولة لتخلفها دولة جديدة وتعود العجلة من جديد. إن الدولة وحكامها يزولون ويبقى ما يحفظه التاريخ عن هذه الدول، فكيف بالتاريخ حافظا لوقفات أدبية حركت المشاعر والقلوب والوجدان، وأيقظت العيون التي نامت على عز واستيقظت على خراب، ولعل واحدة من أبرز هذه الوقفات، وقفة رثت تاريخا كبيرا جدا، وسنوات بل قرونا من الأمجاد والبطولات والملاحم المشهود لها حتى يومنا هذا، هي وقفة أبرز ما فيها أنها أيقظت الناس على توقعات ونبوءات يجمعها عنوان واحد ألا وهو "يا ويلنا بعد هذا اليوم". وتمر السنون ليعيد التاريخ نفسه مع وقفة ثانية هي أخت لتلك الوقفة، فاجعة تلم بالمؤمنين وتعلن نهاية عهد طال لقرون أيضا، الأولى وقفة شعرية أدبية لأبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس، أما الثانية فهي وقفة لأحمد شوقي يحاكي فيها سلفه الرندي من خلال رثاء أختها أدرنة.

أهداف البحث:

أتحدث في هذا البحث عن قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس "لكل شيء إذا ما تم نقصان" وقصيدة أحمد شوقي في رثاء أدرنة إحدى ولايات الدولة العثمانية "يا أخت أندلس عليك سلام" بعد سقوط كل منهما، مظهرا أحوال كلتا القصيدتين المشهورتين بين قصائد رثاء الممالك، من خلال المقارنة بينهما للتوصل في النهاية إلى الدروس والعبر والرسائل الكامنة بين السطور والمستخلصة من معاني أبياتهما.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

أما الأهداف فهي:

١- إظهار الصورة العامة لكلتا القصيدتين.

٢- إظهار كيفية تصوير الفاجعتين عند كلا الشاعرين.

٣- بيان كيفية تفاعل كل منهما مع هذه الأحداث الأليمة.

٤- الكشف عن الرسائل التي أرادا إيصالها إلى الوعي الجماعي للأمة.

إشكالية البحث:

يتفق مغزى قصيدتي أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس وأحمد شوقي في رثاء أدرنة، إلا أن لكل شاعر نكهته في مقاربة الأحداث ونقلها عبر قصيدته، ينظهر هذا البحث إلى وجهتي نظر كل من الشاعرين إزاء حدثين متشابهين بأسلوب تحليلي بهدف الوصول إلى الأبعاد الإيحائية خلف كلتا القصيدتين في شعر رثاء الممالك

أسئلة البحث:

١- ما الجوانب المشتركة بين القصيدتين؟

٢- ما أوجه التباين بين كل منهما؟

٣- ما هي الأبعاد الإيحائية والرسائل الوجدانية والتاريخية في آن التي أراد كلا الشاعرين إيصالها إلى الأمة؟

٤- كيف تفاعل كل منهما مع سير الأحداث الحاصلة وتوقع الأحداث المستقبلية؟

منهج البحث

اتبع هذا البحث منهج الوصف التحليلي، حيث قام على قراءة معاني كلتا القصيدتين وتحليلها من أجل الوصول إلى الأهداف المرجوة والإجابة عن الأسئلة المطروحة.

- البحث -

أبو البقاء الرندي وأحمد شوقي

أبو البقاء الرندي (٦٠١هـ – ٦٨٤هـ/ ١٢٠٤م – ١٢٨٥م)) : هو صالح بن يزيد (أبي الحسن) بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف، أبو الطيب وأبو البقاء النفزي الرندي، شاعر أندلسي. من القضاة له علم بالحساب والفرائض. من قبيلة نفزة البربرية. من أهل رندة. أقام بمالقة شهرا، وأكثر التردد إلى غرناطة يسترفد ملوكها. (١)

أحمد شوقي (١٢٨٥هـ – ١٣٥١هـ/ ١٨٦٨م – ١٩٣٢م): هو أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي يلقب بأمير الشعراء، مولده ووفاته بالقاهرة، كتب عن نفسه : "سمعت أن أبي يرد أصلنا إلى الأكراد فالعرب"، نشأ في ظل البيت المالك في مصر وتعلم في بعض المدارس الحكومية، وقضى سنتين في قسم الترجمة بمدرسة الحقوق وأرسله الخديوي توفيق سنة ١٨٨٧م إلى فرنسا واطلع على الأدب الفرنسي وعاد سنة ١٨٩١ فعين رئيسا للقلم الإفرنجي في ديوان الخديوي عباس حلمي. وندب سنة ١٨٩٦ لتمثيل الحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين بجنيف. عالج أكثر أنواع الشعر مديحا، غزلا، رثاء ووصفا، ثم تناول الأحداث السياسة والاجتماعية في مصر والشرق والعالم الإسلامي. (٢)

حالتان متشابهتان في قصيدتين مختلفتين

وقف الشاعر الأندلسي أبو البقاء الرندي ذات يوم على مشهدية حزينة وكئيبة، وكأن في إحدى يديه كتاب يحكي الأمجاد وفي الأخرى

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

كتاب يحكي عن مستقبل مظلم يحل كليل أسود حالك غربت شمسه ولم يعرف أنى تكون عودة إشراقتها، فجيش ابن زياد طارق، والخلافة المنتقلة من شرق الأرض إلى غربها، وحكاية الأمراء الذين خسروا أقرب الناس إليهم، كل هذا يجول في مخيلة أبي البقاء، ويوم كاد فيه المسلمون الوصول إلى "روما" و"باريس" ينقلب إلى يوم تنكل فيه جثث الرجال والنساء والأطفال والكهل بلا رحمة أو شفقة تذكر، كانت لحظات عصيبة عاشها الرندي، ويا له من تاريخ مبك للقلوب نعيشه اليوم متأملين ما جادت به نفس هذا الشاعر على فن الرثاء الشعري.

حالة الرندي هذه تتكرر مجددا بعد زمن طويل، فيقوم الشاعر أحمد شوقي منتفضا إلى كراسته وقلمه، ليخط رثاء جديدا مع وصول الأنباء المؤلمة لنفوس المؤمنين والآمنين، فبعد حكم إسلامي طال لقرون تأتي الأنباء معلنة سقوط آخر المعاقل العثمانية على الحدود البلغارية، فينعي شوقي أخت أندلس "أدرنة"، مذكرا الجميع بذلك الحلم الذي ضاع مرة، وها هو يضيع من جديد، فاليوم الذي ينتظره المسلمون ليروا وحدة الأراضي الإسلامية واتصالها ببعضها جغرافيا وبلا حدود تفصلها عن بعضها البعض يأتي، لكن، مع أخبار التقتيل والتهجير والتدمير والتقسيم.

فبين قصيدة أبي البقاء التي يختمها بقوله "**لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إيمان وإسلام**"

وبين قصيدة أحمد شوقي الذي يقول في مطلعها "**يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والإسلام**"

تاريخان عظيمان يرثيان ويبكيان.

الأندلس حاضرة العلم وحاضنة العلماء

لكي نستطيع معرفة حجم الخسارة التي عاشها الشاعر أبو البقاء الرندي لا بد من وقفة قصيرة نستذكر من خلالها تاريخ الأندلس باختصار. الأندلس أو ما يعرف اليوم بإسبانيا كانت موطنا لما يعرف بقبائل "الواندال" أو "الفاندال" ومن هنا جاءت التسمية فاندااليسيا وتاليا عربت إلى الأندلس، وكان يحكمها الجرمانيون "القوط" حتى وصل القائد طارق بن زياد مع جيشه في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وحارب مع جيشه بعد أن أمرهم بإحراق سفنهم قائلا "البحر من ورائكم والعدو من أمامكم"، فما كان منه ومن جيشه إلا أنهم قاتلوا حتى انتصروا، ودخل طارق الأندلس فاتحا وباسطا سيطرته عام اثنين وتسعين من القرن الهجري الأول معبدا الطريق إلى من خلفه في الفتوحات، وتوالى الحكام لاحقا على قرطبة فطليطلة فغرناطة فبلنسية فإشبيلية وسرقسطة فألمرية ومالقة وشاطبة وجيان وغيرها من المدن، وحول المسلمون هذه الأراضي إلى أراض تملؤها الحياة وتشهد على التطورات العمرانية والهندسية، وتعيش في ظلال قوانين محكمة، وكان الاهتمام بالعلوم النافعة المختلفة كبيرا، بدءا من علوم الدين إلى علوم العربية، وعلوم الطب والجراحة والصيدلة والهندسة وغيرها، فخرج من هذه الأراضي الإمام القرطبي، وأبو حيان الأندلسي والجرجاني والشاطبي ومئات غيرهم، ومنها خرج شعراء كثيرون كابن زيدون وأبي البقاء الرندي، وكانت غرناطة آخر المدن التي رفع فيها الأذان وخرج منها المسلمون في أواخر القرن الثامن الهجري.

أدرنة مدينة المنارات الشاهقة

لعل أدرنة تكون من أكثر المدن في العالم التي شهدت التنازعات من أجل الدخول إليها وحكمها، وهي مدينة تركية يعود تاريخ تأسيسها إلى الإمبراطور الروماني أدريان وهي التي تقع في إقليم مقدونيا بين مدينة بلغراد ومدينة اسطنبول في القسم الأوروبي من تركيا وقريبة من حدود بلغاريا واليونان(٢)، وكانت عاصمة للدولة العثمانية بين عامي ١٣٦٦م و١٤٥٣م، وقد سقطت عام ١٩١٣ بعد حرب البلقان الأولى وضمت إلى اليونان، وقد استطاع الأتراك السيطرة عليها مجددا بعد توقيع معاهدة لوزان عام ١٩٢٢م. هذه المدينة التي عرفت الإسلام وضمت العديد من الجوامع والمدارس في العهد العثماني كانت جزءا مهما من تاريخ عظيم ابتدأه الأمير عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية التي بدأت شوكتها تقوى في الشرق بالتزامن مع ازدياد التفكك في الأندلس في الغرب، لكن وبالرغم من عودتها إلى الحكم التركي، ترك سقوطها أثرا كبيرا في النفوس بما أنها كانت آخر معاقل العثمانيين سقوطا قبيل بدء الحرب العالمية الأولى والتي كان من تداعياتها تقسيم الأراضي التي كانت تحت الحكم الإسلامي لقرون كثيرة إلى دويلات لا زال الكثير منها يعيش المصاعب.

سقطت الأندلس في الغرب وبقي الأمل مع إنشاء الدولة العثمانية في الشرق، إلا أن سقوط أدرنة والدولة العثمانية كان إعلانا لتوقف

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الخلافة الإسلامية وتقسيم الدول إلى دويلات وتحقيق أحلام وأطماع الكثيرين في الأراضي العربية وأبرزها أرض فلسطين والقدس الشريف.

الأندلس في القرن الرابع الهجر(٣)

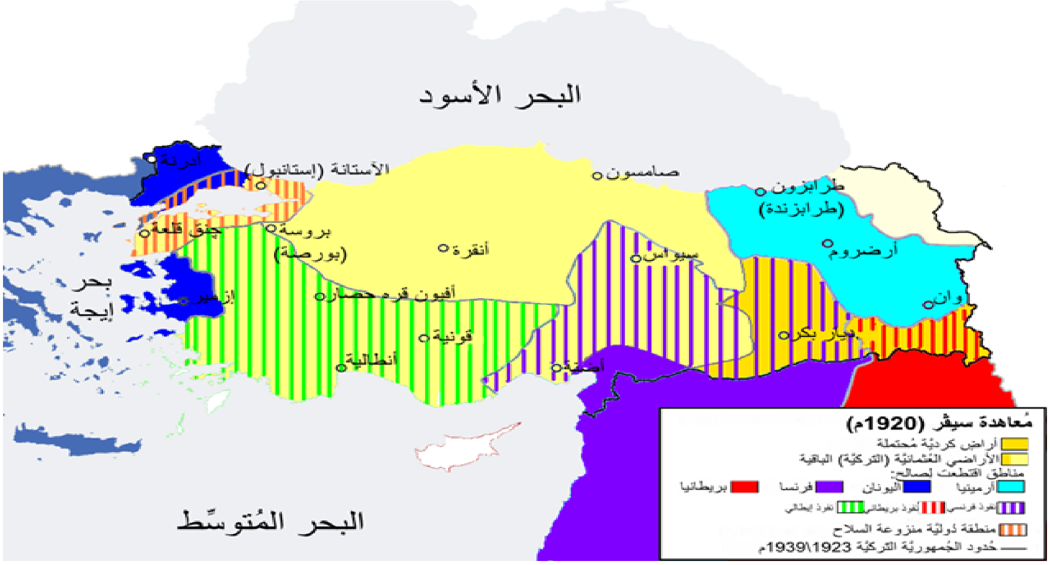

خريطة تظهر أدرنة وهي تحت سيطرة اليونانيين(٤)

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

بين قصيدتي أبي البقاء وأحمد شوقي

يقول أبو البقاء الرندي: (٦)

o لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

o هي الأيام كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

يستهل أبو البقاء الرندي قصيدته التي جعلها على البحر البسيط بالكلام المليء بالحكمة والتعقل، منطلقا من واقع هذه الحياة التي عهدها الناس أنها لا تبقي على أحد مهما على شأنه الدنيوي، فمهما علت المناصب لا بد من يوم سيأتي حاملا أخبار النهاية والزوال، فلا داعي للغرور بطيب العيش الطويل، وإن الزمن الذي يحمل السرور معه يوما، سيحمل الأحزان معه في أيام أخرى، ويدعم هذا التصوير بالأدلة المدبوغة التي عرفها الناس من أخبار الأقوام السابقين، فإن كان حكام الأندلس سيطروا على مساحة جغرافية معينة ولمدة زمنية طويلة، فهناك من قد سبق وحكم أرجاء الأرض بما حوت من مشرقها إلى مغربها، ومع ذلك فإن قوة السيف لم تبق مانعة من السقوط والزوال، فهذا شداد وساسان وقارون وكسرى وغيرهم قد أفضوا إلى يوم لم يعد لهم فيه إلا الذكر والذكرى، ومن هنا نرى أن أبا البقاء يبدأ القصيدة مسلما لحال هذه الدنيا المعهود.

فيقول:

o وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان

حتى قوله:

o أتى على الكل أمر لا مرد له حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

وكما أن طريقة الشعراء في الرثاء أن يخلصوا إلى ذكر محاسن المرثي، فإن أبا البقاء لم يغير من هذه العادة ولو كان المرثي هنا عصرا ذهبيا ومدنا أذهلت العقول من شدة جمالها، فيذكر كل مدينة وما اشتهرت به، فيسأل عن قرطبة دار العلم، وحمص ذات الطبيعة الخلابة والمظاهر الحسنة وعن بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان، كل هذه المدن التي لن تعود كما كانت أركانا وقواعد ستفارق الأمان والاطمئنان، يذكر ذلك في أبياته التي قال فيها:

o فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان

o وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها لها شان

o وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملآن

ثم ينتقل الرندي إلى تصوير وقائع الحوادث والفاجعة الحالة، مستعملا الأساليب البلاغية، يصف المشهدية التي تدمي القلوب، فهذه الديار التي كان لا يخفت صوت الإسلام والأذان فيها أصبحت مقفرة خالية من علامات هذا الدين الحنيف، فالجوامع والمحاريب والمنابرأضحت كأنها إنسان هزه هول المصيبة وأصابه الهلع فبكى من قلة الحيلة فيقول الرندي:

o تبكي الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان

o على ديار من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عمران

ثم يقول:

o حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان

ويبقى أبو البقاء في مراحل استذكار أحوال الناس، فمن الناس من وصل من شدة الرخاء إلى المشي مرحا لاهيا في الغفلة حتى استفاق على خسارة عظيمة وجسيمة، فهذه المصيبة التي ستبقي الأندلس رمزا للأمجاد والأحلام الضائعة.

ويستصرخ أبو البقاء أهل الأندلس وفرسانها، ويستغيث بمن كانوا في يوم مستضعفين وأصبحوا أقوياء، أن هبوا إلى نجدة إخوانكم وخلصوهم من جم المصائب النازلة بهم، وانصروا المسلمين في هذه الأراضي وكونوا عونا له لا عليهم، وأنقذوهم من الجور والطغيان فهم الذين كانوا ملوكا في بيوتهم بالأمس واليوم أضحوا مشتتين مشردين لا مأوى لهم ولا مجير.

فيقول:

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

o يا راكبين عتاق الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبان
o وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنها في ظلام النقع نيران
o وراتعين وراء البحر في دعة لهم بأوطانهم عز وسلطان
o أعندكم نبأمن أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان
o كم يستغيث بنا المستضعفين وهم قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

وبعد هذه الأبيات التي يظهر أبو البقاء فيها ما أصابه من جزع يختار أصعب المشاهد ليصفها، فمن ذا يتحمل تعذيب وتقتيل وتشريد النساء والأطفال، فهنا الأم والطفل يفرق بينهما بلا شفقة، وهناك طفلة حسنها كحسن الشمس يقودها الكفار رغما عنها للموت، أما العين فباكية وأما القلب فلا شيء يغشاه إلا الحيرة، ويختم برسالة واضحة ومهمة، فيقول إن هذه المشاهد والحقائق تستحق أن ينظر إليها وأن يذوب القلب لها ولقساوتها، هذا إن كان قد بقي في القلب إيمان وإسلام.

يقول الرندي:

o يا رب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان
o وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان
o يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران
o لمثل هذا يوب القلب من كمد إن كان في القلب إيمان وإسلام

والخلاصة هاهنا أن الرندي بعدما سرى بقصيدته متخذا الحكمة منطلقا، والتسليم سلوانا وسلاحا، وصف ما رأته عيناه وما أحس به قلبه، واستصرخ العقول من خلال قصيدة أدبية سلسة غير معقدة، تفي بالأغراض التي أرادها ومنها :

١- السرعة في فهم المراد واستخلاص العبر.
٢- التنبيه على أن الحلول ينبغي أن تكون سريعة قبل فقدان ما تبقى من أراض.
٣- إيصال الصورة البشعة لمشاهد العنف الذي وصل إلى النساء والأطفال لعله يحرك شيئا في ضمائر المتفردين بالرأي الذي لا يخدم مصلحة الأمة بل يخدم أغراضا شخصية وقريبا ستزول.
٤- الاستفاقة والإغاثة والرد السريع من قبل من تقع على عاتقهم المسؤولية، قبل أن ينتهي الأمر بتاتا ويزول الحكم الإسلامي في الأندلس، وللأسف هذا ما حصل.

أما بالنسبة لقصيدة أحمد شوقي التي أوقعها تحت عنوان "الأندلس الجديدة" فجاءت في معرض البكاء على خسارة جديدة تذكر بخسارة الأراضي الأندلسية، فاليوم يأتي الدور على أدرنة لتقع تحت الحصار البلغاري وتسلم لليونانيين فيما بعد، إلا أن خسارة أدرنة لم تعن خسارة مدينة فحسب، بل كانت إعلانا لنهاية الحكم العثماني في الشرق، وها هم المسلمون يقعون تحت البلاء مجددا، فيستذكر شوقي الأندلس وكأنه يقول ما أشبه اليوم بالأمس، يسمي شوقي أدرنة بأخت الأندلس ويلقي عليها سلام الوداع في مطلع قصيدته التي نستطيع أن نقول أنه قسمها إلى خمسة أقسام وهي: (ترقيم الأبيات جاء بحسب ترتيبها في ديوان الشوقيات لأحمد شوقي) (٧)

١- القسم الأول (من البيت الأول إلى التاسع): أراده أحمد شوقي قسما يذكر بالأندلس قائلا إن الجرح أصبح جرحين والمأتم مأتمين
٢- القسم الثاني (من البيت العاشر إلى الحادي والثلاثين): جعل شوقي القسم الثاني للتحسر على الملك الضائع مستعملا الأسلوب الخطابي.
٣- القسم الثالث (من البيت الثاني والثلاثين إلى الخامس والخمسين): في هذا القسم من القصيدة صور أحمد شوقي ما حصل لأدرنة وأهلها من حصار ومجازر وتهجير للنساء والأطفال ونستطيع أن نقول أن هذا القسم كان بيت القصيد.
٤- القسم الرابع (من البيت الخامس والخمسين إلى الثالث والسبعين) : انتقل أحمد شوقي في هذا القسم إلى أبيات فيها ما فيها من الحكمة والتسليم بالواقع على غرار ما فعله الرندي في مطلع قصيدته واستذكر الحكام القدماء والممالك القديمة التي أسس لها منذ أيام خلفاء بني أمية.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

٥- القسم الخامس (من البيت الرابع والسبعين إلى نهاية القصيدة): في هذا القسم الأخير يصبر أحمد شوقي نفسه ويدعو أدرنة للصبر ويعود لمدحها إذ إنها ورغم كل الخسائر التي تكبدتها في خلال خمسة أشهر في الحصار لا تزال صامدة ملحقة بالعدو أضرارا كثيرة.

قسم شوقي قصيدته إلى عدة أجزاء، وجدتها خمسة كما ذكرت، وإذا نظرنا إلى قصيدة شوقي نجد مناسبة القصيدة واضحة في أبياتها الأولى، فإطلاقه لفظ "أخت" على أدرنة ونسبتها إلى الأندلس، يوضح أولا تأثر شوقي بالقصائد التي رثت الأندلس، وبالوقائع التي حلت بها فأبقتها في الأذهان.

في القسم الأول من القصيدة يقف شوقي وقفة طللية على آثار قد درست وما بقي منها إلا الذكرى، فما أشبه وقفته بوقفة الشاعر الجاهلي الذي اعتاد على هذه الوقفة في مطلع قصيدته قبل أن يتوصل إلى الغرض الرئيس من القصيدة، ولم يكتف شوقي بالنداء فحسب، بل ألقى السلام على أدرنة فقال يا أخت أندلس عليك سلام، وما أسرع شوقي في إيصال رسالته من البيت الأول ليعلنها قائلا "هوت الخلافة عنك والإسلام"، فبعد سلامه الطللي يعلن الاستسلام إلى ما حل وإلى ما سيجيء بعد قبل أن يخبرنا بتفاصيل ما حدث ثم إنه بعد ذلك وبما أنه ذكر الأندلس، كان لا بد له من أن يذكرنا بذلك الجرح حتى يستطيع أن يقول إن هذا الجرح الجديد شبيه جدا بذلك الجرح بل إنه أقوى، فالرندي لم يقترب لذكر نهاية الخلافة تماما بسقوط الأندلس، أما شوقي فقد جاء على ذكر هذا من البيت الأول حيث قال:

- **يا أخت أندلس عليك سلام ــــ هوت الخلافة عنك والإسلام**

ثم قال:

- **جرحان تمضي الأمتان عليهما ــــ هذا يسيل وذاك لا يلتام**

انتهى شوقي من القسم الأول بعد أن عبر لنا عن حجم المصيبة، وفي القسم الثاني ذهب إلى إطلاعنا على مآثر تلك المدينة الجميلة بحسرة وحزن والتي تضيع وليس لها من منقذ، فلا خال ولا عم يخلص، وأدرنة التي جعلت من الكتائب فريسة، قد تبدل حالها، وبعد أن قيل فيها أنها أشأم مورد ها هي اليوم مورد يُتزاحم عليه ويُحاصر، أما الحسرة الكبيرة في قلب شوقي فكانت في توقف القتال وتسليم حصون أدرنة وفق اتفاقية صلح يسميه بالسلم الأمرِّ من القتال، لأنه سلم واستسلام لا ملك فيه بعد، كما أنه لم يعد هناك ملك في ممالك أفريقيا الأربعة (مصر، طرابلس (ليبيا)، تونس والجزائر)، وها قد سقطت من ملك العثمانيين أيضا.

وهذا من قوله:

- **مقدونيا والمسلمون عشيرة ــــ كيف الخؤولة فيك والأعمام**

حتى وصل إلى قوله:

- **كانت من الغرب البقية فانقضت ــــ فعلى بني عثمان فيه سلام**

ومجددا في هذا المقطع يؤكد شوقي انتهاء حكم آل عثمان في الشرق والغرب.

في القسم الثالث من هذه القصيدة يتخلص شوقي من الطلل والنسيب إلى الغرض الأساس في هذه القصيدة، فهو ما زال ملتزما بالعمود الشعري المشبه لقصائد الأولين، فبعد الاستذكار والتحسر على المجد الضائع، سينقل شوقي لنا صورة لنا أن تخيلها كما شئنا، فالمتحالفون (رومانيا، صربيا، اليونان وبلغاريا) قد استشرسوا في قتالهم تلك المدينة وأهلها، فالمدن محاصرة، والمنكر والبغي والإجرام مستشر ومنتشر، وتذبيح الأهالي وهتك الأعراض حاصل واقع، وكم يشبه شوقي الرندي في التركيز على ذكر الضحايا من النساء والأطفال والشيوخ، فهو مدرك أن لا صورة مؤثرة تعلو فوق صورة رضيع يفطمه حد السيف، وصبية تهتك حرمتها، وكهل يضيع وقاره ويداس، وكما كان الحال بأهل الأندلس، فقد انتهى حال أهل أدرنة إما إلى قتيل أو جريح أو مهجر إلى حيث لا يدري.

فيقول:

- **كم مرضع في حجر نعمته غدا ــــ وله على حد السيوف فطام**
- **وصبية هتكت خميلة طهرها ــــ وتناثرت عن نوره الأكمام**
- **وأخي ثمانين استبيح وقاره ــــ لم يغن عنه الضعف والأعوام**
- **وجريح حرب ظامئ وأدوه لم ــــ يعطفهم جرح دم وأوام**

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

- ومهاجرين تنكرت أوطانهم ضلوا السبيل من الذهول وهاموا

يتوجه شوقي في القسم الرابع إلى الأمة المشتتة، وعلى قاعدة التاريخ التي أثبتت أن كل ملك كان مآله الزوال أو على الأقل الضعف والاضمحلال، فها هو الحال اليوم مشبه لتلك الأحوال، وفي هذا القسم يدخل شوقي في شيء من شعر الحكمة، لكن قبل هذا يذكر بأن العدل هو أساس الملك، فليس لقوة السيف بقاء إذا لم يحتم بالعدل، فأهل البلاد التي دخلها المسلمون لو بقيوا تحت حكم العدل لما طافت بحكامها الدنيا وأعادتهم إلى الوراء، فلا التاريخ يغني بمجرد التغني به - وكأن شوقي يعيش في أيامنا هذه – وها هي الخلافات على المطامع الشخصية لم تفض بكم إلا إلى الضعف.

فمما يذكره شوقي:

- أبقى الممالك ما المعراف أسّه والعدل فيه حائط ودعام
- فإذا جرى رشدا ويمنا أمركم فامشوا بنور العلم فهو زمام
- ودعوا التفاخر بالتراث وإن غلا فالمجد كسب والزمان عصام
- إن الغرور إذا تملك أمة كالزهر يخفي الموت وهو زؤام

ثم يقول

- الصبر والإقدام فيه إذا هما قتلا فأقتل منهما الإحجام

فإما الصبر والقتال دونما تراجع وإما إحجام يودي إلى الزوال، فهذه الأراضي تعاقب على العديد من الخلافات حتى أزهرت وازدهرت فهي تستحق الدفاع عنها حتى آخر رمق.

في القسم الخامس والأخير يظهر شوقي وكأنه يزيد من عزيمة أدرنة في الصمود تجاه الحصار الواقع عليها ويدعوها للصبر فيقول "شرفا أدرنة" ثم يقول "صبرا أدرنة" ويذكرها أنها كانت محلا للخلافة، إلا أن الحكم ساري فيها كما سرى في الممالك السابقة، ومع أنه لن يرفع فيها أذان بعد هذا، وبعد كل ما حل فيها من خراب إلا أنها بقيت صامدة حتى النهاية وكانت مقبرة لجثث الأعداء.

فيقول شوقي:

- خفت الأذان فما عليك موحد يسعى ولا الجمع الحسان تقام
- وخبت مساجد كن نورا جامعا تمشي إليه الأسد والآرام

ثم يقول:

- ضاق الحصار كأنما حلقاته فلك ومقذوفاتها أجرام
- ورمى العدى ورميتهم بجهنم مما يصب الله لا الأقوام
- بعت العدو بكل شبر مهجة وكذا يباع الملك حين يرام
- ما زال بينك في الحصار وبينه شم الحصون ومثلهن عظام
- حتى حواك مقابرا وحويته جثثا فلا غبن ولا استذمام

وفي هذا القسم كأن شوقي يقول يا ليت الاتفاق والصلح ما كان فحصون أدرنة مستعدة لمواصلة الصبر والدفاع.

بين قصيدة الرندي وقصيدة شوقي تشابهات كثيرة إلا أنه ومع وحدة الغرض والهدف من القصيدتين، كان لكل شاعر وقعه الخاص مت أدى إلى حضور الاختلافات.

أولا: اتفقت القصيدتان من حيث الغرض الرئيس، فالواقعتان متشابهتان، وكلا الشاعرين قسما قصيدتيهما إلى أقسام، ضمنا فيها بعض الحكم، وأظهرا فيها التحسر والحزن الشديدين ووصفا ما حصل في كلتا المدينتين من فاقة بعد عز ورخاء وكلا الشاعرين أوصلا صرختيهما لكي تبقى القصيدتان والحدثان في أذهان الناس.

ثانيا: أراد الشاعران من الناس أن يعتبرا مما حصل، وأرادا ممن هم في زمام الأمور الحفاظ على ما تبقى، إلا أن الاختلاف بين الرندي وبين شوقي كان فيما أوصلوه من معان ورسائل غير مباشرة. أما الرندي فصرخته لم تكن فاقدة للأمل، فإنه مع سقوط الأندلس، كان

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

عز المسلمين وشأنهم يعلو في الشرق مع آل عثمان، وما خسره المسلمون وإن لم يعوضه أحد إلى يومنا فإن الملك والحكم لم يزل نهائيا في ذلك اليوم، وأما شوقي فهو أمام مشهدية أصعب، إن الحكم الذي ينتهي أمامه الآن لن يعود قريبا لا في مكانه ولا في مكان آخر، فإن القوة الأوربية في ذلك الحين لم تكن لتسمح بإنشاء نظام جديد بالشكل الهين، وإن التحالفات الحاصلة بين قوى وازنة تحاصر الدولة العثمانية من جميع أركانها، لن تترك هذا المجال حتى تحقق آمالها، إن نظرة الشاعر الأدبية التي استعملها شوقي كانت حادقة جدا إلى درجة لم تبق عنده أملا، لذلك دعا إلى المحافظة على ما تبقى من آثار تلك الدولة المعمرة، إن شوقي قد رأى المستقبل جليا واضحا وكأنه يعيشه، فإن الصرخات التي أطلقها في قصيدته حذرت من مستقبل مظلم، وها هي القدس تضيع مباشرة بعد توالي الخسارات، وما زالت المدن التي فتحت بالدم وحوفظ عليها بالعدل تضيع شيئا بعد شيء، وهنا يصح قول الرندي في ختام قصيدته "لمثل هذا يذوب القلب من كمد".

الخاتمة

إن نظرة الشاعر وإحساسه تجعلانه يطلق عنان لسانه وقلمه في كتابة العديد من القصائد التي يأتي من يحللها لاحقا، إلا أن المعاني الحقيقية والمقاصد الأساسية تبقى في نفس الشاعر، فمهما جهدنا في الوصول إلى ما أراده الرندي ولاحقا شوقي فلن نصل إلى ذلك الشعور اللذين عشاه تجاه تلك الخسائر ولن نصل إلى ما كان في نفسيهما على الحقيقة. لكن الشاعران استطاعا أن يوصلا ما أراداه بلا تكلف، فمن خلال الصور والاستعارات التي استعملاها جسدا حقيقة لم تكن كتب التاريخ لتجسدها في هذا الشكل، فإن الاستعمال الأدبي جعل من الشاعرين مصورين يحملان أحدث أنواع أجهزة التصوير، ينقلان أجود صورة إلى كل من أتى على قصيدتيهما، فجعلا القارئ يتصور مدى فظاعة ما رأته أعينهم في حينها، ومن ناحية أخرى استطاع كل شاعر أن يوصل رسالته غير آبه بالزمن الذي هو فيه، فكان كل شاعر واثقا بأن كلماته ستبقى مؤثرة مذكرة بالأحلام الضائعة، فكل من أراد دراسة التاريخ يستطيع أن يأتي إلى تلكما القصيدتين ليستخلص العبر التي أولها هاهنا أنه لا يدوم حال العباد على ما هو عليه، فالدهر وكما قيل يوم لنا ويوم علينا، فيا ليت القصيدتين كانتا تشبهان قصيدة أبي تمام يوم فتح عمورية، أو ليت من استصراخاهم هبا كما هب المعتصم آنذاك.

هوامش البحث ومصادره:

١- الأعلام للزركلي، الجزء الثالث، ص ١٩٨، دار العلم للملايين، بيروت.

٢- الأعلام للزركلي، الجزء الأول، ص ١٣٦ .

٣- أطلس تاريخ الإسلام، حسين مؤنس، ص ٧٢، دار الزهراء للإعلام.

٤- مقال بعنوان "أدرنة التركية مدينة المنارات الشاهقة"، جريدة البيان الالكترونية، ٢١ سبتمبر ٢٠١٢.

https://www.albayan.ae/across-the-uae/religion-and-life/١,١٧٣١٥٦٩-٢١-٠٩-٢٠١٢

٥ - https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/٧٣/٧/TreatyOfSevres___٢٨٪corrected٢٩٪..ar.png

٦- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقّري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر.

٧- ديوان الشوقيات، أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2